الرؤية الحضارية في القرآن الكريم

بقلم : د. عماد الدين خليل

● في محاضرة عن ملامح الحضارة الاسلامية وعوامل نموها وازدهارها ، أثار الطلبة هذا السؤال : ما هو موقف القرآن الكريم من مفهوم الحضارة ؟!

ووجدتني أخرج عن الموضوع الأول لكي أجيب بوضوح عن السؤال .. وكان الطلبة يطرحون ، بين الحين والحين . المزيد من الأسئلة الذكية محاولين الا يفوتهم جانب من الموضوع دون أن يتلقى شعاعاً من ضوء..

إن كلمة (حضارة) و (تحضر) ـ قلت لهم ـ لم تكن شائعة في استعمالات العربية اللغوية أول مرة ، وطيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الاسلامية ، ويكاد ابن خلدون أن يكون أول من نبه إليها واستخدمها في (مقدمته) ، إلا أن اصطلاحه الأثير الذي كان يستغني به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو (العمران البشري) الذي يقابل الحضارة البشرية) ●

● ابن خلدون «العمران البشري» مقابل كلمة الحضارة البشرية●

الرؤية الحضارية في القرآن الكريم

• الأهداف الحضارية للمذاهب الوضعية تتصف بالغموض والمثالية كما هو الحال عند هيجل و بالتحديات الصارمة والمادية عند ماركس وانجلز .

• أعطى هيجل الدولة المبررات الفلسفية كافة لممارسة العدوانية التي تقود ولا ريب إلى الدمار الحضاري والظلم البشري.

ومهما يكن من أمر فان المصطلح الحضاري ، بتعريفاته المختلفة قد فرض نفسه في القرن الأخير ، بعد الاحتكاك الثقافي الشامل بين الشرق والغرب ، وتقدم الأخير في حقول التفسير التاريخي والدراسات الحضارية ..

وبدلا من هذا فاننا نلتقي ، عبر القرآن الكريم بصيغ ومفردات عديدة أخرى تعتمد للتعبير عن المسألة الحضارية ، فلقد سعى القرآن لكي يخاطب العرب بلغتهم (الراهنة) ومن خلال مفرداتهم الشائعة .. ونستطيع أن نتلمس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع الى حادثة (خلق آدم) باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشري ..

قاطعني أحد الطلبة قائلا : ولكن أليس من حقنا أن نتساءل أنه مادامت الحضارة فعلا وابداعاً ، ومجابهة لكتلة العالم الطبيعية ، واستجابة للتحديات الدائمة ، وتهيئة وإعماراً وتمهيداً وتطوراً وما دامت الوقائع والأحداث التاريخية ، عموماً تجيء بأمر الله الذي لاراد لأمره ، وبارادته التي تعلو على الارادات ، فهل لنا أن نرجع بالمسألة إلى ماوراء خلق آدم .. إلى سائر العمليات التي أريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد ، وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات .. بل إلى ما قبل ذلك ، إلى اليوم الذي قال فيه الله للسماوات والأرض : (ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : أتينا طائعين) ؟ إن آدم عليه السلام ، وذريته من بعده ، ما داموا حلقة من حلقات الابداع الالهي في الكون .. فهل لنا أن نصل معطياتهم الحضارية بما هو اشمل وأرحب ، وبما يعطيها مساحتها الحقيقية في حركة الكون والعالم ؟

حيثما التقت ارادة الله بالمادة

أجبت : بكل تأكيد .. فما من ريب في أن التاريخ الحضاري في القرآن يمتد الى ما قبل آدم .. إنه كل فعل تمتزج فيه ارادة الله وروحه وكلمته بالمادة فتصوغها كتلا كونية ، أو نظماً طبيعية ، أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نبات أو حيوان .. أو تخلقها بشراً سوياً . ويجيء الانسان ـ من ثم ـ خليفة لله ، كما يؤكد القرآن في أكثر من موضوع لاعمار الأرض التي هبط إليها وهو يحمل العدة لهذا العمل ، ويمتلك الشروط الأساسية لمجابهة العالم ، وتحويله وتغييره وتطويره ، سواء بما ركب الله في ذاته من عقل وروح وإرادة وتكييف جسدي فذ ، ليس المشي على قدمين ، وتحرر اليدين ، ومطاوعة الأصابع بأقلها خطورة .. أو بما هيأ له الله في الأرض وما حولها من امكانيات التعامل الحيوى معها ، والاستمرار في أطرافها ، والتحاور المبدع الخلاق بينها وبين الانسان الذي جعل بهذا التمهيد المزدوج لأداء مهمته الحضارية : سيداً للعالمين ، وفضل على كثير من خلق الله تفضيلا ..

تساءل الطالب : ولكن ، هل يكون في مقدورنا أن نحيط علماً بأبعاد تلك الوقائع الموغلة فى أغوار الزمن ؟

قلت : إن عملية بناء الكون وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض ، ما دامت قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلا الله ، وما دامت المقاييس الآدمية تجيء ـ دائماً ـ نسبية قاصرة محدودة إزاء خلق الله ، فليس لنا أن نطمع للاحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية (التكوين) هذه .. وليس لنا ـ كذلك ـ أن نفترض نظريات لا جدوى من ورائها ..

إن هذا فوق طاقتنا ، وإن أية محاولة فى سبيله لا تعدو أن تكون عبثاً (ميتافيزيقياً) يذكرنا بما كان يفعله جل الفلاسفة اليونانيين ، والاسلاميين الذين تأثروا بهم ، والذين أفنوا أعمارهم فى هذا السبيل .

وهذا لا يعنى أبداً التشكك بالمحاولات العلمية (التجريبية) لدراسة الجانب الطبيعى القائم (فعلا) من الكون ، والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم ، لأن هذا هو الموقف الذى يدعو له القرآن فى عشرات الآيات .. إنما المقصود هو الجانب الفلسفى التصورى لبدايات الخلق والبحث عن (العلة) و (والمعلول) و (ومتناهي الأول) .. إلى آخره .. وكل مايبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه فى عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة ، أن الكون ماض فى حركته الدينامية نحو الاتساع الدائم بارادة الله « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » (الذاريات ٤٧) .. وأن هذه الهدفية على المستوى الكونى ، الكلى ، وهذه الحركة صوب الاتساع ، لابد وأن تنعكس فى التصور الاسلامى ، على حركة التاريخ البشرى نفسه ، ومصير الانسان فى العالم قبل أن يجيء اليوم الذى أعلن عنه القرآن مراراً ، حيث

● ماركس برر للطبقة العاملة أي أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدل في وسائل الإنتاج ، الأمر الذي قادها إلى المجازر الجماعية تجاه القوى المعارضة كافة.

● إن مفهوم العبادة يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص - ويعطيها الدافع والمبرر.

تطوى السماوات كطي السجل للكتاب ، وتكف الحياة والتاريخ البشرى عن (الاستمرار) تمهيداً ليوم الحساب وتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ الخلق الالهى الدائم : « كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين » .. (الانبياء) .

ليبلوكم أيكم أحسن عملا

وتساءل طالب آخر : هل من مؤشرات قرآنية تربط بين الابداع الحضارى وبين المراحل التى سبقت خلق الانسان ؟

أجبت : إننا ، حيثما تنقلنا فى أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون ، وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض ، وتمعنا فيها ، وجدناها ترتبط ارتباطاً عضوياً أصيلا بالدور المنتظر الذى بعث الانسان لكى يلعبه ، وبالقصد والجدوى والنظام والاعمار والغاية التى بعث من أجلها ، وهى كلها قواعد أساسية لأى نشاط حضاري فعال هادف منظم متطور على الأرض .. وهاكم بعضاً منها :

«وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شي فصلناه تفصيلا» (الاسراء : ١٢) .

«وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا» (هود : ٧) .

«هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير» (الحديد : ٤) .

«الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور» (الملك : ٢) .

«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إنا كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون» (الأنبياء : ١٦ ـ ١٨)

إن البشرية من خلال هذه الآيات وغيرها كثير ، إزاء تجربة اختبار وابتلاء تتطلب منها ، أفراداً وجماعات ، عملا وإبداعاً .. ولكن أي عمل وابداع يتوجبان على الانسان في الفرصة التي ستنتهي إلى أجلها المسمى ؟

إنه ـ يقيناً ـ ليس ارتجالا كيفياً ، ولا مواقف جزئية مفككة ، كما أنه ليس فوضى لا يحدها نظام ولا يسلكها هدف .. إنما العمل والابداع اللذان ينبثقان عن تخطيط مرسوم ، وينطلقان من مواقف كلية شاملة ، ويصدران عن نظام مبرمج يهدف إلى غاية (داينامية) لا حدود لها أبداً .. تلك هي (عبادة الله) و (التوجه اليه) و (التلقي عنه) ..

الطريق المفتوح والأزقة المسدودة

وقال طالب ثالث : لاريب أن (عبادة الله) كهدف أعلى للجماعة المؤمنة تمنح هذه الجماعة ملمحاً حضارياً تتميز به عن سائر التجارب والممارسات الوضعية

قلت : بالضبط .. فان عبادة الله وحده والمفهوم الابداعي الشامل ، هي الهدف الذي يتوجب على الانسان ، فرداً وجماعة ، أن يصعد إليه كافة أوجه انشطته الحضارية .. بينما ترسم المذاهب الوضعية ـ هي الأخرى ـ أهدافاً لحركتها الحضارية ، تتميز بالغموض والمثالية كما هو الحال عند هيغل ، وتتميز حيناً آخر بالتحديات الصارمة والمادية كما هو الحال عند ماركس وانجلز .. الأمر الذي قاد هيغل ـ وهو يتحدث عن تجلي المتوحد من خلال الدولة ـ إلى أن يعطيها كافة المبررات الفلسفية لممارستها العدوانية التي قد تقود ولا ريب الى الدمار الحضاري والظلم البشري ، وقاد ماركس ورفيقه إلى إعلان دكتاتورية الطبقة العاملة كهدف للحركة التاريخية ، وتبرير أي اسلوب تعتمده لتحقيق هدفها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدل في وسائل الانتاج ، الأمرالذي قادها ـ ويقودها ـ إلى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه كافة القوى المعارضة ، والتي لا تنسجم وبداهات التحضر البشري الحر ..

ثم ماذا بعد هذه الأهداف التي تؤكد المذاهب الوضعية أنها آتية لاريب فيها ؟ وهي في تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع (الداينامية) التي أقرتها كأساس لحركة التاريخ البشري ونمو الحضارات ؟ ماذا بعد دكتاتورية الطبقة العاملة وتجلي المتوحد ؟

إن التجربة البشرية أوسع دائماً ، وأغنى ، وأشمل من أن تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسر ، ومجابهة كل تفرد أو تميز إنساني ، ولا يعدو مصيرها في نهاية الأمر أن يكون انشاء مجتمعات لا تزيد في نشاطاتها ومعطياتها عما نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هندسية صارمة دقيقة ، وعمل دائب وانتاج متزايد .. أو أن تحصر هذه التجربة البشرية الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة الشاملة ، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيغلي ويسوسها عرق ممتاز ، مبررة سلفاً كل ممارساته العدوانية ونزعاته الشوفينية ..

الوفاق مع النواميس

بينما ترسم المذاهب الوضعية أهدافاً كهذه تتميز بالغموض أو الطغيان أو التناقض أو الانغلاق ، نجد القرآن الكريم يعلن هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب حوله كافة الفاعليات والمعطيات : عبادة الله ، والتلقي عنه ، والتوجه اليه .. ويطلب من القوى المؤمنة أن تتحرك على مدار التاريخ وفق كل الأساليب الانسانية الشريفة الممكنة ، لتجمع البشرية حول هذا الهدف الكبير «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله» (البقرة : ١٩٣) .. ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلائقها جميعاً مع النواميس الكونية الشاملة ، والنظام الالهي الملزم في مداه البعيد ، الذي ما منح هذا القدر من الحرية للانسان الا لكي يعتمدها باختياره في التساوق مع

الرؤية الحضارية في القرآن الكريم

النظام ، والاندماج في المجرى العام لخلائق الله جميعاً ، تمييزاً له ـ بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ،

ومكانته كسيد للعالمين ـ عن سائر خلق الله .. وثمة فرق شاسع ، على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية ، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الانسان وهو متساوق مع نواميس الكون ، متناغم مع مسيره ومصيره ، أو وهو منشق على هذه النواميس متنافر معها بدءاً ومصيراً ..

إن الانسان والشعوب والأمم والحضارات كانت تتحرك دائماً وفق إحدى اثنتين لا ثالثة لهما : فاما أن تكون مواقفها وأعمالها وأهدافها منسجمة مع نواميس الكون وسنن الحياة ، متوافقة معها ، مما يترتب عليه انجاز حضاري أغنى ، وتوحد بشري أشمل ، وسعادة نفسية أكثر عمقاً ، ومصير في الأرض والسماء أشد توافقاً مع مهمة الوجود البشري في الأرض .. وهذا ما سعت الأديان لتحقيقه في العالم ، وما يسعى الاسلام ، وسيظل ، من أجل تحويل البشرية كلها إليه «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» .. (الأنفال : ٣٩) .

وإما أن تجيء هذه المواقف والأعمال والأهداف منشقة ـ بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال ـ عن نواميس الكون وسنن الحياة ، مرتطمة بها ، الأمر الذي يترتب عليه انجاز حضاري متفكك ، وتمزق بشري شامل ، وشقاء نفسي عميق ، ومصير سيء في الدنيا والآخرة يخرج عن طبيعة الدور الذي بعث الانسان إلى العالم لأدائه ويجيء مكافئاً لعصيانه وتمرده ورفضه أداء المهمة .. وهذا ما سعت المذاهب الوضعية ، وتسعى لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها إليه ..

وهكذا نجد القرآن ، في تفسيره لأدوار الشعوب والأمم والحضارات ، يتخذ هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدى توافق التجربة البشرية مع النواميس والتوجه الكلي لله .. أو ارتطامها بها .. ويدعونا إلى مواقع الانسجام والتوافق نافخاً فينا روح العمل والابداع ، مستقطباً ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد الشامل الذي أعلنه الله سبحانه «وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون» (الذاريات : ٥٦) .

القمة التي تليق بالانسان

وإذ رأيت اهتماماً من الطلاب بمتابعة الموضوع واصلت حديثي قائلا :

إن القرآن يؤكد ، هنا وفي أماكن عديدة ، أن الله سبحانه ما خلق «معشر الجن والانس» إلا «ليعبدوه» .. وليس مفهوم العبادة هنا ، مساحة ضيقة لا تتجاوز دائرة «الشعائرية» والاتصال الروحي بالله .. إنه تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء وتغدو أشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الأرض ، ويمنحها معنى ، ويسير بها إلى هدف واضح مرسوم .. انه يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص ويعطيها الدافع والمبرر ، وينفخ فيها روح الابداع والابتكار والتطور الدائم الفعال ..

كما أنه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري إلى القمم التي تليق بمكانة الانسان في ساحة العالم .. وبهذا تسقط ـ ابتداء ـ كافة السلبيات التي يمكن أن تتمخض عن أي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجاً شاملا ، ولا يسعى الى هدف واضح ، ولا يلتزم أخلاقية الانسان في حواره مع خالقه .. وتبرز من بين هذه السلبيات معضلتا «العبث» و «اللا جدوى» اللتان تسيطران على مساحات واسعة من الانشطة الحضارية المعاصرة على مستوى الواقع والفكر ، في وقت تنتفيان فيه أساساً ، من خلال الرؤية القرآنية ، التي تبين لنا مراراً أن خلق السماوات والأرض ما جاء عبثاً ، وأن سعي الانسان في العالم ليس أمراً محكوماً باللا جدوى : «أيحسب الانسان أن يترك سدى» (القيامة : ٣٦) .

«افحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟» (المؤمنون : ١١٥) . «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا انا كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون» (الأنبياء : ١٦ـ١٨) . «وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى..» (النجم : ٣٩ـ٤١) .

إن القرآن الكريم يعلن أن وراء هذا النشاط والجهد البشري غايات أساسية يتمحور حولها وتنشد جميعاً الى غاية الغايات والمركز الذي تتجه إليه الخلائق جميعاً في نشاطاتها المختلفة لتحقق به وجودها وتجد مصيرها .. تلك هي عبادة الله والتلقي عنه والتوجه اليه ..

كان عقرب الساعة يشير الى انتهاء وقت المحاضرة ، فوجدتني مضطراً للتوقف عن الحديث معلناً للطلبة ان الاسئلة التي لا تزال تلح عليهم قد تجد فرصة الاجابة عنها في لقاء قادم ..

فالموضوع ـ حقاً ـ واسع متشعب .. واحاديثه ذوات شجون !!